نص إبداعي

نوع من الجنون

قوانين الدولة كانت منتهكة... ما من تقليد، ما من شرعة أخلاقية كانت موضع احترام... وفي انهيار القيم كلها استبد نوع من الجنون.

شتيفان تسفايغ

مي غصوب

لم يكن الهاتف قد رنّ إلاّ مرتين عندما رَفعتْ السماعة. كانت تظن أنها لن تتآلف أبداً مع اللامبالاة الذي يُعامل بها الهاتف في باريس. هي نفسها كثيراً ما كانت تغلق الخط حين تتصل ولا يرد أحد بعد ثلاث مرات أو أربع من قرع الجرس. الناس هنا لا يحسّون أن شيئاً يدفعهم للوثوب إلى الهاتف حين يبدأ بالرنين، ربما لأن بيوتهم أقل ازدحاماً، واحتمالات أن يكون الجالس على مقربة من الهاتف أقل.

لكن ما إن رفعتْ السماعة حتى عرفت من الخشخشة الخفيفة المألوفة على الخط أن النداء من لبنان.

«هنا بيروت، إبقَ على الخط.» صوت عاملة تليفون ضجرة في بيروت.

غاص قلبها. ما كان بوسعها إلا أن تشعر بالتوتر عندما توصَل ببيروت، وكانت تستجيب بسخط لانفعال لاعقلاني يمتلكها. فهي كلّما كانت تُشدّ إلى البلد الذي تركته كانت لا تتمالك نفسها تماماً فيما يرتفع نبضها بوتيرة متسارعة، وأسرع مما تريد.

بنفاد صبر، وامتعاض، انتظرت وصول المكالمة.

«تكلم، يا عيني، معك باريس،» قال الصوت التلقائي نفسه لمن كان يتصل من الطرف الآخر أياً كان. وكان هو. كان الصوت نفسه الذي ظنتْ أنها أسكتته في أذنيها إلى الأبد. هذا الصوت لا مكان له هنا. كان عليه أن يبقى حيث تُرك، مكتوماً تحت ركام المباني المنهارة في بيروت، محبوساً بأمان وراء التدقيق الصارم لسلطات الهجرة. ليس من حقه التطفل على عالمها الجديد، على منفاها الباريسي الدافئ. هذا الصوت، صوته، كان تعدياً، تجاوزاً على فضائها المكتسَب. أعادت السماعة وسط تحياته اليائسة: «هل تسمعيني...؟ هالو...؟ هالو...؟»...

أغلقتْ السماعة بقوة. غاضبة عليه، نعم عليه، وعليه وحده. لم يكن من شأنه أن ينتهك صفاءها الجديد. إنه ينتمي إلى حرب هربت منها ولا تريد أبداً مَن يذكّرها بها مرة أخرى.

رنّ الجرس ثانية. هرعت لنزعه من القابس. صوت الصمت في الغرفة كان عميقاً ومدمّراً. أدارت ظهرها للطاولة التي وُضع عليها الهاتف الجامد بلا حياة، ومشت صوب النافذة. حاولت أن تضوي نفسها في المشهد المسحور لسطوح منحدرة تتزاحم على المكان في أفق المدينة. كانت محظوظة بالعثور على هذه الشقة. هنا، في الدور العلوي لهذه البناية القديمة، في نهاية شارع ضيّق ملتوٍ، L'Impasse des Eaux Douces في قلب الحي اللاتيني، أمضت ساعات تراقب الزوايا التي صنعتها تلك السطوح المتراصّة، متخيّلة الحيوات التي كانت تمور تحتها.

كانت هذه بانوراما من صنعها وتصميمها هي. واقع ملموس، بنقطة بداية حدّدتها كفعل إرادي، مختزلة ماضيها ومروّضة ذكرياتها. صوته، وجوده يجب ألاّ يتدخّل في هذا المشهد... لن تسمح بذلك... لا تتحمّل أن تسمح به...

جاء ألن من ورائها ووضع يديه على كتفيها. جفلتْ. «ما بك يا حبيبتي؟ عفواً، ألم تسمعيني داخلاً؟ مَن كان على الهاتف؟»

«لا أحد. نزعتُ الهاتف من توصيلته. لا أريد الحديث عن الأمر.»

وجهُ ألن لم يكن قادراً على أن يخفي انفعالاً. استهواها صفاء عينيه، طبعه البارد، الرصين. التقته في المكتبة الإنكليزية عصراً ذات سبتٍ قبل أشهر، وهو الآن يمكث عندها حين يأتي إلى باريس. كان يأتي بانتظام، بين كل عطلة وأخرى من نهاية الأسبوع، وخلال الإجازات الأكاديمية. كانت تقدّر حرصه وتثمّن موقفه المسترخي. شعرت دائماً بالامتنان له بسبب عدم إلحاحه على طلب إيضاحات. لكن

رصانته في تلك اللحظة بدت مسرحية بمعنى ما. كانت تثير الغيظ. كان لها رائحة التهذيب المكبوت مما أفقدها سحرها.

ابتعدت عنه بصورة مفاجئة، تناولت سترتها وغادرت الشقة. نزلت درجات السلم بسرعة متجنبة قطة مدام دوفور ومتجاهلة تحديق عينيها الخضراوين الثاقبتين. غادرت البناية بخطى ثابتة قبل أن تمنح بوّابة المبنى فرصة الخروج من ركنها المنزوي وإشغالها بواحد من أحاديثها المملة.

مشت متوترة ومسرعة. مشية امرأة مهمومة. امرأة مغتمّة لإصرار ماضيها على اللحاق بها والتواصل فجأة بالحاضر. لم يبقَ مكان في قلبها لنكد الشعور بالذنب الذي أثارته سحنة ألن الحزينة. رفضُها الجارح للطفه كان أحسن ما استطاعت أن تفعله. كأنها بحاجة إلى إفراغ قلبها تماماً لكي تتمكن من البقاء. هي أصلاً استجمعت كل ما نجحت في حشده من قسوة كي تهجر الصوت الذي عاد اليوم ليظهر في حياتها. ظنت بشكل ما أن الرجل الذي سمعت صوته اليائس على الهاتف ظل حبيساً في المدينة التي هجرتها، منزاحاً إلى حقبة ولّت ومضت.

لأول مرة منذ انتقالها إلى شقتها الباريسية مشت في شوارع حيّها الأليفة غافلة عن الألوان ومباهج سوق الخضار المزدحم، غير عابئة بمغريات واجهات متاجره. لم تشعر بالنسمة المنعشة المعلنة عن مجيء الربيع قبل ميعاده. لم تتوقف عند المقهى – البسترو الذي ترتاده للتلذذ بعادتها الكسولة في احتساء «الإكسبريسو» وهي تراقب المارة. كانت بحاجة إلى مواصلة السير. تمشي بعناد إلى الأمام. تحاول منع أفكارها من العودة إلى المكان الذي انبعث منه صوته، إلى الذكريات المبتورة لمدينة ممزقة كانت ذات يوم مدينتها.

***

كانت بيروت تعبق بشذى أرض نديّة. رائحة حلوة، لعوب ملأت منخارَيْها. شمس ظافرة أماطت الستار الرمادي عن السماء مهدّئة غضبها بمسحة من زُرقة. وبدا أن الخوف من الموت الذي أفرغ الشوارع وتركها حزينة، قد تلاشى كما لو بمعجزة. جسدُها شعر بقوة وخطتْ إلى الأمام منشرحة الأسارير. الحياة بدأت تدبّ في مخيم صبرا الفلسطيني مع استيقاظه. رائحة شاي داكن كانت تنبعث من أكواخ متداعية متسللة عبر الفتحات المتوجسة لمداخلها الضيقة. أطفال اندفعوا طائشين في الأزقة الضيقة، وأمهاتهم يرششن الأرض الإسمنتية بالماء ثم يكنسنه بسخاء إلى خارج بيوتهن التي تتجمّع كالعناقيد. المخيم، المترع عادة بالضجيج والحركة، كان

لم يزل يختبر الصمت المكشوف الذي يعقب الغضب وهدير القتال. داخل المركز الطبي الذي كانت متوجهة إليه، بدَت الجدران بيضاء رائقة، والأصوات خافتة. إلا أن سلوك الموظفين الحذر لم يكن كافياً ليحمي مرضاهم من العالم الذي في الخارج. كيف يمكن لأحد أن يأمل بفصل «الداخل» عن «الخارج» في مكان سطحه مصنوع من الصفيح المتموج وبابه الأمامي مفتوح مباشرة على صخب الزقاق والغبار الغازية من أرضه المعبّدة؟ كانت تتساءل عن ذلك كلما دخلت «المستشفى»، كما كان يروق لسكان المخيم أن يسموه. كانت تعمل هناك، تساعد في تصنيف الأدوية على الرفوف وترجمة تعليماتها إلى العربية. كانت تأتي إلى هنا مرة في الأسبوع منذ بداية الحرب، وهنا لأول مرة أحست أن ارتباطها بالحركة اليسارية ذو معنى، وأنه ارتباط ملموس. هنا، بين الشكاوى الغاضبة وتسليم الجرحى الصبور بمصابهم، قريباً من مجموعة فوضوية من النساء اللائي حملن أطفالاً مرضى وحاولن تهدئة الأصحاء الذين اصطحبنهم معهن، أدركتْ مدى قرفها من أفراد طبقتها، الطبقة الوسطى، وخوفهم المَرَضي من هؤلاء الناس، وعدم إشفاقهم على «المخيمات غير الصحية» التي لم يطأ أحدهم ذات يوم أرضها.

بدتْ غريبة في المخيم، وهذا كان يزعجها. وطريقتها في الملبس كانت تختلف عن التنانير الطويلة الممتلئة التي تلبسها نساء المخيم، أو مناديل الرأس التي غطت رؤوسهن باحتشام. لم تتمكن قط من حمل نفسها على لعبة التظاهر بـ«الأصالة» وتغيّر جينزها بفستان طويل قبيل دخول المخيم لأداء واجباتها النضالية، كما فعل البعض من رفيقاتها.

كانت ترى في ذلك حركة مسرحية، ولم يكن لديها متسع من الوقت لما كانت تعتبره «نفاقاً شعبوياً». كانت تسير في الأزقة الموحلة بخطى مسرعة قليلاً تنمّ عن امرأة تبدو واثقة من نفسها.

أجواء الهياج في المركز الطبي أحدثها وجود سيارتي جيب مكشوفتين انحشرتا داخل الزقاق المجاور. كان عليها أن تمشي على الأطراف للوصول إلى الباب والدخول إلى المركز. توقف هو عن الكلام وتوجهت عيناه صوب الباب حيث كانت واقفة. كانت الممرضتان والطبيب جالسين أمامه، وهي بالكاد تراهم. كانت هناك شلّة من الرجال المسلحين يقفون في باحة الاستقبال، التي قلّصوا مساحتها بدرجة كبيرة، مفسدين الجو بدخان المالبورو. مرّت لحظات ثقيلة، تخللها صمت محرِج، قبل أن يقدمها الطبيب ويدعوها إلى الجلوس.

أبو فراس لم يكن طويل القامة كما كانت تتصور. كان مدار كلام كثير منذ اندلاع الحرب. تجنّبتْ النظر إليه، خشية أن تشي بانفعالها الداخلي وفضولها الحاد. كان له صيت ذائع بكونه قائداً صلباً، ومحارباً خطراً ومناوراً من وراء الكواليس. كانت تعرف أنه يراقبها وهو يسأل الموظفين الصحيين عن احتياجاتهم والمشاكل التي يواجهها المستوصف في تلك الأوقات العصيبة. واصل الرجال تدخين سجائرهم بشراهة معدّلين الكلاشينكوفات على مناكبهم وهم يصغون صامتين بالتركيز العميق للمدخنين الذين لا تسقط السيجارة من أيديهم. أما هو فكان يمسك سيجارته بين إبهامه وسبابته –يد ناحلة بدا أن حرارة عميقة تنبعث منها.

لم تكن قادرة على فهم ما يدور من حديث، وكانت عاجزة عن منع نفسها من النظر إلى يديه بأثرهما القوي الذي يتخذ شكل زوايا حادّة. السحابة التي لفّت الغرفة بالدخان غشت رؤيتها وإحساسها بالواقع. فوجئتْ عندما أدركت أنه كان يقول كلمات الوداع ويهم بالمغادرة، يتبعه مقاتلوه وحراسه الذين بدوا الآن مفعمين حيوية وانتباهاً. حين تلاشى صرير إطارات السيارات المغادرة توجهت إلى الرفوف التي جاءت لترتيبها. حركاتها وأفكارها كانت أبطأ مما كان في نيّتها. مرأى عينيه السوداوين الثاقبتين، وحركة يديه الدافئتين الرشيقتين ظلا عالقين بعناد في ذهنها. وانتبهت على حين غرّة إلى أنه، بخلاف غالبية الرجال العرب، كان بلا شنب. وجدت هذه الحقيقة مسليّة. وضبطت نفسها تبتسم.

بعد ساعة أو نحو ذلك، وكانت الأدوية على الرف لا تزال غير مترتّبة، سمعت عويل سيارة تتوقف في الزقاق خارج المستوصف. واحد من حراس أبو فراس دخل الغرفة فجأة وهو يمص سيجارته المالبورو غير عابئ على الإطلاق بيافطة الباب التي تعلن «رجاءً إقرع الباب قبل الدخول».

«أبو فراس طلب مني أن آخذك إلى مكتبه. ثمة شيء عاجل يحتاج إلى مناقشته معكِ. سأنقلك إلى هناك بالسيارة.» كانت تعرف أن عليها أن تبديَ تردداً، أو ربما تقول شيئاً عن ضرورة إتمام عملها، لكنها كانت عاجزة عن مقاومة رغبتها في الانقياد إليه. التقطت سترتها الزرقاء الغامقة التي ترتديها خلال القيام بمهماتها النضالية، ولكن حين ارتدتها تمنت لو أنها لم تبذل كل ما بذلته كي تبدو باهتة الشكل، مهملة الهندام.

لاقتْ صعوبة في أن تتذكّر كيف دخلت مكتبه أو كيف تسلّقت سلم البناية التي أخذها الحارس إليها. لم تكن في الواقع تستمع إلى خطاب أبو فراس الطويل والجاد

في لهجته، عن مدى حاجة الثورة إلى أشخاص مثلها. بدا أن جمَلَه لا تتألف من كلمات. رسائل، عبارات ضاعت في غمار رغبتها في الاقتراب من يديه، في الاستدفاء بالحرارة المنبعثة من حركاتها المتوترة. دهشت بسرور عندما قال لحارسه أنه لم يعد يحتاج إليه. صوت حارسه مودعاً بدا بغرابة صوتاً غير رمادي. سمعتْ الباب يوصد، ولاإرادياً تحرّكت نحو تلك اليدين ونحوه.

كان هذا بداية عاطفة غارقة في معمعان الحرب والخطر، مؤجّجة بسرّيتها وقربها من الموت والدمار. لقد اندفعتْ إلى مغامرة تحف الأخطار بشذوذها عن المألوف، تعرف مخاطرها لكنها لا تفعل شيئاً لمقاومتها.

***

وصلتْ إلى بلاس دو شاتليه بعدما مشتْ عبر بولفار سان ميشال دون علم منها. غاظها انفتاح الميدان الذي قُصر على المشاة وحركته النشيطة، وأعادها إلى الحاضر. لماذا تمشي بهذه السرعة... تتصرف وكأنها امرأة هاربة... مطاردة؟ بيروت كانت بعيدة. وهي لم تُعدم الخيارات. تستطيع أن تدخل مسرح Théatre de la Ville أو تمشي عائدة إلى الجسر. تستطيع أن تمنح نفسها لانسياب السين ناعماً وتترك لمواساة حضوره أن يهدّئها. لم يكن عليها أن تهرع كما كانت. تستطيع أن تدفع الذكريات إلى الوراء وأن تحدد نقطة بداية أحدث عهداً لتاريخها الشخصي، فتطيل ما كانت أنجزته قبل المكالمة اللعينة عصر ذلك اليوم. ما فعلته في بيروت، وطريقة تصرفها هناك، لم يكن مسؤوليتها بل حدث وسط ضرب من الجنون المعمَّم. إنها الآن تعيش هنا، بجوار نهر متألق عظيم، في مدينة عظيمة زاخرة بالحياة، تبعد سنوات ضوئية عن الموت الذي شهدته خلال تلك الفترة الغريبة من حياتها.

لكن تلك المرات الثلاث التي رنّ فيها الهاتف بدت كافية لسلبها راحة البال، وأعادت مشاعر بالذنب غريبة لا تُسبر. وما من يقين يحملها الآن على الاندفاع هائمة على أرصفة المدينة، في خطى أسرع مما اعتادت عليه باريس.

«المسؤولية مسؤوليتي أنا أيضاً. لقد أعمتني العاطفة المشبوبة وفقدتُ صفاء ذهني. خدعتُ نفسي بأني أنخرط في ثورة، ثورة تنهي البؤس والظلم. لكني قمتُ باستغلاله. استخدمته لكي أنتمي. لكي أجني طاقة من خوف الموت الذي كان منتشراً. دفنتُ الخوف في جسدي تحت الدفء الذي كان ينبعث من احتضانه لي. كانت هناك ليلة لم أتمكن من ترك جسده وبقيتُ أشدّه إلى داخلي على إيقاع القصف الذي كان يدكّ بلا هوادة، هازّاً بعنف البناية التي التقينا فيها خلسة. كنتُ أكبح بغبطة

الأسئلة عن معنى ما يحدث، عن تناقضه مع المُثُل التي انطلقنا كلنا منها. دأبتُ على الحركة والانشغال بأشياء أفعلها بدلاً من التوقف والاستفهام. فقدتُ كل إحساس بما هو طبيعي واستدعيتُ جسده ليأخذني أعمق في دوار المجهول...».

لا بد أنها كانت تتكلم مع نفسها. كان الناس يرمقونها بنظرات محرَجة. كانت تتكلم بصوت عال كأنها تريد أن تسمع بنفسها ما كانت لا تريد قوله لأي أحد آخر.

مداراة ألن كانت لبقة، لكنها تمنّت لو أنه كان أكثر صرامة وأقل احتراماً للسنوات التي سبقت لقاءه بها. ربما حينذاك ما كانت لتنتهي كامرأة مخبولة تتكلم مع نفسها على أرصفة باريس. صارت الآن في شارع ريفولي تقترب من اللوفر، فيما الشوارع تغص بالسياح. شعرت بتعاطف أكبر معهم في تلك اللحظة، إذ رأت نفسها فجأة زائرة في باريس لا شخصاً بدأت حياته هنا قبل أشهر قليلة لا أكثر، على بوابات مطار أورلي.

انعطفت يميناً عند Palais Royal وبحثت عن مقهى تستطيع أن تريح فيه قدميها وتهدّئ ذهنها المعذّب بفنجان إسبرسو. كانت بحاجة إلى تمالك نفسها. كانت تعرف أنها لم تعد قادرة على الإفلات من تطفّل قصتها ذاتها. طلبت قنينة ماء معدني وفنجان قهوة، وشعرت بالرغبة في تدخين سيجارة، كما لو أن فعل التدخين الذي أقلعت عنه، يمكن أن يحسم قرارها بالنظر إلى الوراء. بحثتْ في جيبها وعثرت على فاتورة كهرباء قديمة وقلم حبر جاف كان مكسوراً في أحد طرفيه. كان النادل ينظف المحل قبل انتهاء نوبته، فدفعتْ الحساب بسرعة متلهّفة كي تُترك وحدها مع خواطرها والقفا الأبيض لفاتورة الكهرباء.

«عزيزي أبو فراس،

أنتَ، إذاً، من كان على الهاتف اليوم! أعتذر عن قطع الاتصال معك. لم أتمكن من سماع صوتك، مثلما أني غير قادرة على مواجهة المرأة التي كنتُها عندما كنتُ قريبة منك. أعلم أنك عانيت الأمرّين عندما اختفيتُ. ما زلتُ أرى اليأس في عينيك عندما نظرتَ إلى برودي المفاجئ وتحوّلي الذي لا تفسير له خلال لقاءنا الأخير. المرأة التي كانت تصبو إلى لمساتك، التي بدت أن رغباتها لا ترتوي أبداً، كانت تدير ظهرها عليك رافضة أن تقدم حتى ولو نأمة من تفسير. هذه المرأة كانت حائرة بتحولها ذاته وما كانت لتستطيع أن تقدم مبرراً لا تبرير له.

ألا ترى: عندما جُرح شقيقي، أصرّيتَ على المجيء إلى المستشفى لتكون قريباً مني وتكون عوناً لي في مواساة والديّ. لكن جراح شقيقي وقنوط والديّ دفعتني

عائدة إلى عالمي السابق، العالم الذي كانت الحرب ومأساة المكتوين بها حقيقية فيه كما اللحم المحترق. الوجوه المهشمة التي كانت تنتظر بقلق في أروقة المستشفى، بدّدت تجريد الحرب. ولم يعد ممكناً سماع الحرب بوصفها ذروة أصوات متفجّرة، أو النظر إليها على أنها مجرد سماوات جميلة بغرابة في ألق الليل. عاطفتي نحوك انفصلت عن جسدي لتخلف وراءها مذاقاً فظيعاً. أفكاري كانت متعبة كأنها مغشيّة بوجع صداع آني. ألم شقيقي كشف فجأة كل الجراح التي اخترتُ أن لا أراها في الأشهر التي كنا معاً فيها. الوجوه المعذبة لزوجات وأصدقاء وذوي أولئك الجرحى الملتاعين بالألم، محشورين في أروقة المستشفى المكتظة، أضحت شهادات لا تُطاق على لامبالاتي أنا. ما كان عليك أن تأتي إلى هذه الأروقة، إلى واقع أُسرتي. ما كان عليك أن تصبح حقيقياً. لم يكن لنا إلا الانتماء إلى غير الطبيعي، ولم نكن حقيقيين إلا في واقع كان شاذاً. وبسبب هذا وحده كنا نمارس الحب محمومين واشتدت عاطفتنا اتقاداً.

لم أنس لهفتي تلك الليلة عندما أدركتُ أن أحد زوارك مهرّب دولي. تحدث عن قادة المعسكر الآخر، «أعدائك»، باطلاع واسع. حاولتُ التنصت إلى الحديث من خلال الباب المغلق. لم أشعر بحاجة إلى إصدار حكم على ذلك الرجل وقتذاك. أنت، من الجهة الأخرى، لم تكن تريد أن أختلط به. أذكُر قولك لي بعدما غادر: «إن طريق التحرر لا يمكن أن يكون نقياً ونظيفاً.» كنتَ لا تحبه. أردتُ الانضمام إليك معه في الغرفة ولكنك لم تسمح لي. لهفتي كانت شبيهة بلهفة مراهقة تقابل ممثلاً من فيلم شاهدَتْه للتوّ. كنتُ سمعتُ عن هؤلاء المهربين الذين لا صديق لهم ولا قضية، ويتعاملون مع الجانبين المتصارعين على السواء، وكان لدي فضول لرؤية واحد منهم بلحمه ودمه. كان الأمر عندي لعبة. كدخول عالم محظور. عندك كان عملاً قذراً لا بد أن تنجزه، وعملاً لم ترد أن تكون لي صلة به. غادرتُ البلاد ما إن انتهى الخطر الذي كان يهدد حياة شقيقي. لم أنظر إلى الوراء قط. بدأتُ أكره كل من يحمل سلاحاً باسم قضية. بتُّ لا أطيق تبريراتهم. حسبتُ أني بمحو الماضي أستطيع أن أمحو علاقتي ذاتها. وسأكون قادرة على أن أقول لنفسي «لم أحمل سلاحاً ذات يوم، وكل ما في الأمر أني كنتُ أحاول مساعدة أولئك الذين كان مجتمعي يضطهدهم. أغمضتُ عيني عن الفظاعات، عن حفلات الثأر ورد الفعل التي كانت منتشرة من حولي.» كنتُ لا أريد النظر إلى الجرائم التي يقترفها الرجال الذين اختلط بهم، والذين يُسمى البعض منهم اليوم شهداء. أغرقتُ عذابي في ارتعاشات الانغماس الشبق في الملذات. ما كنتُ أستطيع أن أفسر لك ذلك في حينه، لأني نفسي لم أفهمه وقتذاك.

تحصنتُ بفقدان الذاكرة لأن ذلك كان أسهل. بنيتُ عالماً بلا ماض، لكن مكالمة هاتفية واحدة كانت كافية لأن تثبت كم كان ما شيّدتُه هشاً ومفتعلاً.

كنتُ محظوظة. كانت لدي إمكانية الرحيل. كثيرون كانوا ضحايا الحرب ولم يكن لديهم ترف تجنّب التورط فيها. لكن نعيم فقدان الذاكرة يبدو قصير العمر، والرغبة في تجاهل مسؤولياتي كانت ذريعة واهية ضد الذنب. وأصعب ما علي الاعتراف به أني تعمّدتُ العمى زمناً طويلاً. وتطلّب الأمر جسد شقيقي المهشم والممزق لتحريري. فأي حق لي الآن في لوم مَنْ واصلوا انغمارهم في شذوذ الحرب؟

حاولتُ أن أتحول تحولاً كاملاً. كان علي أن أنتقل إلى وضع جديد بالكامل، أن أمضي إلى بلاد غريبة وأسمع لغة مختلفة قبل أن أتمكن من إدراك كم كان الأمر كله مريعاً ولامعقول.

كنتُ بحاجة إلى عبور آلاف الأميال لكي أعرف العيش مرة أخرى خارج هذا المهرجان من العنف والموت، وأدرك كم كانت قسوتنا قاسية فعلاً.»

في تلك اللحظة كانت تكتب على ظهر الفاتورة نفسها. لم تلحظ الحبر الأزرق يلطخ أناملها من القلم المكسور. كانت تعرف أنها لن تبعث بالرسالة أبداً لكنها كانت تحتاج إلى المضي في الكتابة. نادل جديد كان يعدُّ الموائد من حولها للعشاء. رماها بابتسامة خاطفة وتساءلتْ إن كانت تعني أنه يريد منها ترك الطاولة، أو أنه لم يقصد إزعاجها. أُضيء المزيد من المصابيح في المقهى، وتطلعتْ إلى الخارج. إشراقة السماء المضيئة اختفت، دافعةً النهار إلى سوداوية وردية–زرقاء. مجموعة من خمسة أو ستة مراهقين دخلوا المقهى بصخب. كانوا يتكلمون بصوت زاعق، مزهوين، يتدافعون بعنفوان الشباب. ألقتْ نظرة سريعة على مائدتها قبل أن تغادر، كأنما تريد أن تتأكّد أنه لم يبقَ أثر لسرّها على وجه المائدة. مشت خارجة بخطى بطيئة تواكب إيقاعات باريس مع حلول الظلام. بدأت رحلة العودة إلى البيت. كانت سعيدة بمواجهة الليل. أحستْ كأن الطريق بين «باليه رويال» وشقتها في الحي اللاتيني استراحة هادئة، وقفة جليلة بين ذكرياتها المعتمِلة ومستقبل بدا مبهماً.

ألن لم يسألها عندما عادت إلى الشقة وأعادت وصل الهاتف. لم يسأل حتى أين كانت أو كيف تشعر. كان يحضّر العشاء ويقلّب صفحات كتاب جلبه معه. كتاب ذو غلاف مجلّد عن نظرية فايرابند في المعرفة التي سيحدثها عنها بحماسة خلال العشاء. هل كانت لتقترب منه أكثر لو كان أشد إلحاحاً؟ لاحظ مداعباً، وقارصاً قليلاً، إنها احتست أكثر مما تحتسي عادة من «نبيذ الطاولة» الذي يشربان. لكنته الإنكليزية

المحبّبة، بجنوحها إلى مط وقلب الـ «in» في vin وفتح «a» في table، كانت تذكيراً لطيفاً بلقائهما الأول. اتزانه الهادئ روّح عنها، وبعد أن رفعت بسرعة ما كان على المائدة، جلست أمام مكتبها. كانت في شوق إلى الطواف مجدداً عبر ذكرياتها، وكانت تريد أن تكتب.

«أنت أيضاً كنتَ رجلاً ألطف من الرجل الذي حوّلتك إليه الحرب. أستطيع أن أشعر بشوقك المفاجئ إلى الرقة، وحاجتك لأن تلوذ إلى امرأة مارست الحب معك. لكن المرأة التي كنتُ وقتذاك رفضت كل محاولاتك لأنسنة العلاقة. تلك المرأة كانت منغمسة في اغتراب جسدها اغتراباً حسياً عن حواسها ومشاعرها. لا شيء حولي كان له معنى في الحقيقة، وأنا لم أكن أريد أن تكون حقيقياً وإنسانياً وسط البلبلة كلها. قربُ أولئك الرجال المقاتلين الذين كنتَ تتحرك في وسطهم، كان يدفعني إلى نوبات من الرفض والانشداد لم يهدِّئها إلا غمرك. وحتى وقتذاك كنتُ أمقت هذه الرجولة المفرطة التي استحوذت على مدينتي. كنتُ أهرب من مخاوفي باختبار انكشافي اختباراً لا ينتهي. كنتُ أكبح هذه المخاوف بالخوض في المخاطر، وأنت ما فتئت تُذَل بما كنتَ تحسب أنه شجاعتي. لم أكن أتكلم كثيراً معك. لم يهمني سوى معاناة الآخرين، كل الآخرين، معاناة ما كنتُ أسميه «الإنسانية». ولكني أنكرتُ إنسانية الرجل الأقرب إلي، والذي كثيراً ما كنتُ أشدّه إلى داخلي بعاطفة متقدة. عاطفتي المشبوبة كانت مجرد عَرَض من أعراض الحرب. لم يكن بوسعي قط أن أشرح لك ذلك، وعندما خلفتُ الحرب ورائي محوتُ وجودك مثل أولئك الجنود الذين يفضلون أن يتركوا خِزيَهم مدفوناً في الأرض التي أُرسلوا للقتال فيها.

ما يعذّبني الآن هو السؤال اللاذع كيف سأتصرف لو كنتُ لم أزل في قبضة القتل والقسوة الشيطانية التي استحكمت بوطني. هل كنتُ سأتمكن من الاستمرار في إغماض عيني والتهرب من خطر الأمر كله بالاختفاء داخل جسدي واختزال ذاتي إليه؟ هل كانت هذه الدوامة من الهمجية والوحشية ستجرف عقلي بالكامل؟

«لماذا كل هذا الغضب في الغرب بسبب رجل مخطوف واحد وفي بلدي كلنا نعيش كالأسرى في ساحة حرب؟» لو بقيتُ هل كنتُ سأقول أشياء فظيعة كهذه؟ ربما كنتُ خائفة من الحديث معك لأني خائفة مما كان من الجائز أن أتحول إليه لو بقيتُ في بيروت. ربما لو سمعتك تتكلم، لما شعرتُ بأني حرّة في إدانة كل القسوة التي أراها وأراقبها عن بعد؟ ربما أنا مجرد خائفة من تحمل قسطي من المسؤولية.»

تلك الليلة أخلدتْ إلى النوم دون خوفها المعهود من الليل وكوابيسه. وفي تلك الليلة حلمتْ بالسيدة نومي...